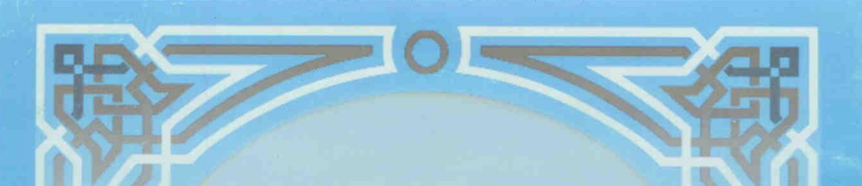


لسنا اليوم أهلاً لنصر الله

مهذّب

كيف نستحق النصر من عند الله؟

قام على إعداده للطبع

سليمان بن يعقوب الهشلمون

ناشر الأصل

دار ابن المبارك للنشر والتوزيع

الخبر - الرمز البريدي ٣١٩٥٢

ص.ب / ٣٤٢٢ - هاتف ٨٩٤٠٢٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ . . . إنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَومٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِم ﴾

سورة الرعد آية (١١)

قال شيخ الاسلام ابن تيمية
في كتابه الجواب الصحيح

وظهور الكفار على المؤمنين أحياناً هو بسبب ذنوب المسلمين، كيوم أحد ، فإن تابوا انتصروا على الكفار وكانت العاقبة لهم، كما قد جرى مثل هذا للمسلمين في عامة ملاحمهم مع الكفار ، وهذا من آيات النبوة وأعلامها ودلائلها ، فإن النبي - إذا قاموا بعهوده ووصاياه نصرهم الله وأظهرهم على المخالفين له ، فإذا ضيعوا عهوده ظُهر عليهم ، فمدار النصر والظهور مع متابعة النبي وجوداً وعدماً من غير سبب يزاحم ذلك ، ودوران الحكم مع الوصف وجوداً وعدماً من غير مزاحمة وصف آخر يوجب العلم بأن المدار علة للدائر . . .

. . . فبهذا الاستقراء والتتبع يبين أن نصر الله وإظهاره هو بسبب اتباع النبي ، وأنه سبحانه يريد إعلاء كلمته ونصره - أي النبي ﷺ - ونصر أتباعه على من خالفهم ، وأن يجعل لهم السعادة ، ولمن خالفهم الشقاء .

لسنا اليوم أهلاً لنصر الله

مهذّب

كيف نستحق النصر من عند الله ؟

تهذيب :

سعد بن عبد الرحمن الحصين

ناشر الأصل
دار ابن المبارك للنشر والتوزيع
الخبر - الرمز البريدي ٣١٩٥٢
ص.ب / ٣٤٢٢ - هاتف ٨٩٤٠٢٢٨

طبع الأصل عام ١٤٢١
وطبع المهذب عام ١٤٢٥
ناشر المهذب
وقف الأنصار - طابه

الخطبـة

«إنّ الحمد للّه؛ نحمده ونستعينه [ونستغفره، ونعوذ باللّـه من شرور أنفسنا ومن سيّئات أعمالنا]، من يهـده اللّـه فـلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاّ اللّه وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمّدًا عبده ورسوله».

[صحيح مسلم برقم ٨٦٨]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِـهِ وَلا تَمُوتُـنَّ إلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْـسٍ وَاحِـدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِساءً وَاتَّقُـوا اللَّـهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّـهَ وَقُولُـوا قَـوْلاً سَـدِيداً. يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِـرْ لَكُـمْ ذُنُوبَكُـمْ وَمَـنْ يُطِـعِ اللَّـهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾.

«أما بعد: فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكـل محدثـة بدعـة، وكـل بدعة ضلالة».

[صحيح مسلم برقم ٨٦٧]

كيف كنّا وكيف صرنا؟

كان المسلمون أقوى قوّة وأعـز أمـة علـى وجـه الأرض بضعة قرون مع أنهم لم يكونوا أكثر النّـاس عَـدَدًا ولا عُـدَّةً، واليوم زاد عددهم وزادت عدّتهم، ولكنّهـم صـاروا «غثـاء كغثاء السّيل»، عالة على غيرهم، يستمدّون قوّتهم وفكرهـم وجميع سبل عيشهم من مخالفيهم، فما سبب تخلف المسـلمين وضعفهم بعد القوة التي كانوا عليها؟

هذا سؤال يدور في أذهان كثير من المسـلمين، وكـل فئـة منهم تحاول الإجابة عليه، وتقترح حلـولاً تظنهـا الأصلـح، ولكن أكـثرهم لا يدركـون السـبب الأول والأهـمّ لضعـف المسـلمين وتخلّفهـم وانهزامهـم أمـام الحضـارات الدنيويّـة، فيتخبّطون في تشخيص أمراضهم، واختيار طـرق علاجهـم، وإن كنا نظنّ بهم أحسن الظنّ في محبّتهم للإسلام، ورغبتهم في عزّة المسلمين.

فـأكثرهم يظـن أن التقـدم التّقـني هـو الحـل، فمـا علـى المسلمين إلا أن يتّحدوا ويجمّعوا المعدّات الحديثـة المتطـورة، ويحصل أبناؤهم على الشهادات العلمية العالية وبعـد ذلـك يتحقّق النصر والتقدّم.

حتى أنّ أحد الدكـاترة المسـلمين كتـب في صحيفـة تعنـى

بشؤون الإسلام والمسلمين ما نصه:

(إن الدول التي سيكون لها حق البقاء بصورة عزيزة كريمة هي تلك الدول المتقدمة تقنيًا...) ا.هـ[1].

ونسي قول الله تعالى: ﴿ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين﴾، وقوله تعالى: ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئًا﴾، وقول الرسول ﷺ: «وهل تنصرون وترزقون إلاّ بضعفائكم»، [رواه البخاري وغيره].

وللقارئ حقّ السؤال: إذا لم يكن نقص عدد المسلمين وعدّتهم سبب تخلفهم، فما هو السبب؟

أقول وبالله وحده أستعين: يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾.

وهذا ما نعزم -إن شاء الله- أن نفعله، وهو أن نبين سبب ضعف المسلمين وهزيمتهم، مستدلين بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

---

(١) جريدة المسلمون: العدد، ٢٦٥، شعبان ١٤١٠ هـ، مقالة بعنوان: «المتغيرات الدولية في عالم التسعينات».

السلاح والتكنولوجيا لا يضمنان النصر

إن المسلمين الأوائل عندما هزموا أعظم قوتين عسكريّتين في العالم (في ذلك الوقت فارس والروم) كانوا متخلّفين -بلغة الصحافة- تقنيًا وعسكريًا بالمقارنة مع الدول التي هزموها، بل كان أكثرهم لا يقرأ ولا يكتب، كما قال رسول الله ﷺ: «إنّا أمّة أميّة لا نكتب ولا نحسب»، [متفق عليه].

وفي المقابل؛ فإن التتار عندما غزوا بلاد المسلمين وهزموهم واكتسحوا مساحة كبيرة من الدولة العباسية كان التتار المنتصرون يُعتبرون متخلفين علميًا وعسكريًا بالمقارنة مع الدولة العباسية التي كانت في ذلك الوقت أكثر الدول عَدَدا وعُدّة.

وفي هذا العصر هزمت فيتنام الوثنية الشيوعية فرنسا ثم أمريكا بجيوشهما النصرانية بالغة القوة التقنيّة العسكرية بعد حروب دامت عشرات السنين، وهزمت أحزاب أفغانستان المسلمة المبتدعة المختلفة جيش روسيا النصرانية الشيوعية، وقاومت كوبا الشيوعية النصرانية أمريكا نصف قرن، كل هذا يؤكد ما ذكرناه من أن السلاح والفنون التقنية لا تضمن النصر وإن كانت من أسبابه، فالله تبارك وتعالى يقول:

﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى﴾، وقال تبارك وتعالى: ﴿وما جعله الله إلا

بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم﴾.

أمّا قول الله تبارك وتعالى: ﴿وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل﴾؛ فهو دالٌّ على مشروعيّة الأخذ بالأسباب التي سخرها الله لخدمة خلقه، ولكن الله بيّن في الآيات الأخرى أنها مجرد أسبابٍ قد تنفع بإرادة الله أو لا تنفع، وقد نصر الله جنده يوم بدر مع قلة الأسباب وضعفها، وحجب النصر عنهم يوم أحد ويوم حنين فترة من الزمن رغم الكثرة والقوة، ونَصْر الله عباده المسلمين مقيّد بالإيمان والطاعة والإتباع، لا بالشرك والمعصية والابتداع.

قال الله تعالى: ﴿ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون﴾.

ثم إنه سبحانه بيّن أن النصر من عنده وحده، لا من عند أحد ولا شيء غيره: ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾. وليس مرتبطًا بالضرورة بقوة أحد الفريقين.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيّد بنصره من يشاء إنّ في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾، وقال تعالى: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾.

لهذا يجب أن نعرف الأسباب التي تعيننا بإذن الله، وتجعلنا نستحق النصر من الله سبحانه وتعالى، ونأخذ بها، وهذا هـو موضوع هذه الرسالة القصيرة، مستدلين في ذلك بكتـاب الله تبارك وتعالى، وسنة نبيه ﷺ، وفقه أصحابه الكرام رضي الله عنهم أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ولينصرن اللهُ من ينصـره إن الله لقوي عزيز﴾، وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنـوا إن تنصـروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾.

إذًا فاللهُ ينصر من عباده المسلمين من ينصرُه، فكيف يكون نصرنا لله سبحانه وتعالى وهو القوي الغني عن كلِّ شيء؟

يقول الشنقيطي رحمه الله في تفسير (أضواء البيان):

(ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمـة أن المؤمنـين إن نصروا ربهم نصرهم على أعدائهـم، وثبـت أقدامهـم -أي: عصمهم من الفرار والهزيمة-، ثم بيّن صفات الموعودين بهذا النصر في قوله تعالى بعدها: ﴿الـذي إن مكّنّـاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾.

يدلّ على أنّ الذين لا يقيمون الصلاة ولا يؤتـون الزكـاة ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ليـس لهـم وعـد

من الله بالنصر البتة) ا.هـ.

إذًا؛ فمعنى نصر المؤمنين لله عملُهم بكتابه وسنة رسوله ﷺ -كما فهمهما السلف الصالح في القرون المفضلة-، وإفراد الله بالعبادة وطاعة أوامره وتجنب نواهيه، والدعوة إلى سبيله على منهاج النبوة المعصومة لا على مناهج البشر.

وقال ﷺ: «إذا تبايعتم بالعِيْنَةِ وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد؛ سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم». [رواه الإمام أحمد وأبو داود وغيرهما وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم ١١].

فسبب الذّلّ الذي هو عكس العزّة ليس التخلف عن ركب الصناعة والاختراع والقوة العسكرية كما يظن كثير من الناس، ولكن سبب الذّلّ -كما ذكر الرسول ﷺ- هو البعد عن الدين، والانحراف عن صحيح الاعتقاد إلى الشرك، وعن الاتباع إلى الابتداع، ولا سبيل لنا نحن المسلمين لِنُزيل هذا الذلّ عنّا إلا بالعودة إلا ديننا كما أخبر بذلك الصادق المصدوق في الحديث الذي ذكرناه: «سلّط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم».

ولنتذكر قول الإمام مالك رحمه الله: (لا يصلح آخر هذه الأمة إلاّ بما صلح به أولها)، وأول هذه الأمة لم يصلح

بالتكنولوجيا، وإنما صلح بالتمسك بالدين.

إنّنا لا نقول بأن التخلف التّقني والعسكري أفضل، ولا نقول بأنه يجب أن نهجر المهن الدنيوية ولا نتعلمها، بل المقصود الرد على من يزعم أن أهمّ سبب لضعفنا وانهزامنا هو تخلفنا التّقنيّ أو العسكريّ أو الصناعيّ.

نحن نقول: إن الفنون التقنيّة مطلوبة، ولكن ضعفنا فيها ليس هو سبب هزيمتنا إنما سبب هزيمتنا هو هَجْرنا لديننا وجعله وراء ظهورنا، ولهذا نحن بحاجة إلى الرجوع إلى ديننا أكثر من حاجتنا لهذه الفنون، لأن رجوعنا إلى ديننا هو السبب الأول الذي نستطيع به -إن شاء الله- أن نحقق النصر بفضله وعونه سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وما النصر إلاّ من عند الله﴾.

إذًا ما هو الحل؟

الحل ليس من عندي، ولكنه من كلام الله سبحانه وتعالى، وكلام النبي ﷺ، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ من ينصره﴾، وبيّن معنى الكلمة الأخيرة في الآية بعدها: ﴿الذين إن مكنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾.

وأخرج ابن كثير في تفسيره قول عمر بن عبدالعزيز رحمه

الله عن هذه الآية: (إنها ليست على الوالي وحده، ولكنّها على الوالي والمولّى عليه، ألا أنبئكم بما لكم على الوالي من ذلكم، وبما للوالي عليكم منه؟ إنّ لكم على الوالي من ذلكم أن يأخذكم بحقوق الله عليكم، وأن يأخذ لبعضكم من بعض، وأن يهديكم للتي هي أقوم ما استطاع، وإنّ عليكم من ذلك الطّاعة غير المبزوزة ولا المستكره بها، ولا المخالف سرّها علانيتها).

شروط الرّجوع إلى الدّين

أولاً: أن نتعلّم ونفهم ديننا فهمًا صحيحًا كما جاء به نبينا ﷺ، وفَقِهَهُ سلفنا الصالح رضي الله عنهم.

أما من يدّعي أنه رجع إلى الدين على طريقة فلان أو فلان، أو على منهاج الحزب أو الجماعة أو الفرقة الفلانيّة، فهذا لم يرجع إلى الدين، وإنما رجع إلى الفُرقة والابتداع، فالطريقة الصحيحة هي واحدة، وهي كما قال النبي ﷺ:

«... وإنّ بني إسرائيل تفرّقت على ثنتين وسبعين ملة، وتفترق أُمَّتي على ثلاث وسبعين ملّة، كلهم في النار إلاّ ملة واحدة... من كان على مِثْل ما أنا عليه وأصحابي».

[صحيح سنن الترمذي ٢١٢٩]

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله ذلكم وصّاكم به لعلكم تتقون﴾.

واعْقِلْ هنا أن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وأن هذا صراطي﴾ بالمفرد؛ أي أنه صراط واحد هو المستقيم، بينما وصف تبارك وتعالى الطرق والسبل الضالة بالجمع، فقال: ﴿السُّبل﴾، وهذا أمر معروف عند أهل السنة والجماعة: أن صراط الله المستقيم القويم واحد، أما السبل والطرق الضالة فهي متعددة.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: (وقوله تعالى: ﴿فاتبعوه ولا تتّبعوا السبل﴾ إنما وحّد سبيله؛ لأن الحق واحد، ولهذا جمع السّبل لتفرّقهم وتشعبهم...).

قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: خطّ لنا رسول الله ﷺ خطًّا، وقال: «هذا سبيل الله»، ثم خطّ لنا خطوطًا عن يمينه وعن يساره، وقال: «هذه سبل، على كل سبيل شيطان يدعو إليه»، ثم قرأ: ﴿وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾، [صححه الألباني في تخريج شرح الطحاوية برقم ٨١٠]

وعلى هذا، فيجب أن نفهم الإسلام فهمًا صحيحًا، كما

نزل بــه الـروح الأمـين علـى قلـب رسـول الله ﷺ وفهمـه أصحابه وتابعوهم من ســلفنا الصــالح رضـوان الله عليهــم أجمعين لنستطيع اتباع صراط الله المستقيم.

ثانيًا: أن نعمل بالإسلام كاملاً بعد فهمه فهمًا صحيحًــا، ولا نتنكّر لأي جزء منه صغـيرًا كـان أو كبـيرًا بدعـوى أننـا يشقُّ علينا الالتزامُ بهذا الجزء أو ذاك، أو بتفريــق الدّيـن إلى لباب وقشور، أو إلى ظاهر وباطن، بل نتقى الله ما استطعنا.

ويجب أن نفهم أن من لا يُنَفِّذ بعض أوامر الدّيــن -دون الإيمان والشرك- قد يكون مذنبًـا عاصيًـا أو فاسـقًا، ولكـن الذي ينكر شيئًا من الإسلام وإن كان مــن السـنن قـد علـم ثبوت الأمر به أو النهي عنه؛ فهو كافر إذا لم يَتُبْ.

وهذا مما يقع فيه كثير مــن النـاس عندمـا يجـدون أنّـه لا يوافقهم العمل بشيء من الدين أمْراً أو نَهْياً فَيُزَيِّنُ الشــيطانُ لهم أن يقولوا: هذا ليـس بواجـب أو هـذا ليـس بمحـرّم، أو هذه قشور، ويظنون أنهم بذلك قـد أسـقطوا المسـئولية عـن أنفسهم، وتخلصوا من العقاب بالإنكار، ولكن الله أعلم بمــا يَصْلُح لخلقه وبما يُصْلِحُهم.

فالواجب على المسلم المؤمن إذا فعل محرّمًا أو ترك واجبًا أن يستغفر الله ويتوب إليه، ويكثر من الدعاء والاســتغفار، ويسـأل

الله الغفور الرحيم المنان أن يعينه على اجتناب هذا المحرم ويعينه على القيام بما افترضه عليه، وليستتر ولا يجاهر بالمعصية؛ لأن الرسول ﷺ يقول في الحديث المتّفق على صحّته:

«كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله تعالى فيقول: يا فلان، عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه». [صحيح البخاري برقم ٦٠٦٩]

ثالثًا: أن ندعو الناس لهذا الدين الذي تعلمناه وفهمناه، وعملنا به على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

ومن أعظم أعمال الدعوة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى فيه، قال ﷺ: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه فتدعونه فلا يستجاب لكم».

[صحيح سنن الترمذي برقم ١٧٦٢]

نعم يجب أن ندعو الناس ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، ونبدأ أولاً بأنفسنا، ثم بأقرب الناس، ونبدأ ببيوتنا فنغيّر ما فيها من المنكرات، وننصح بالرفق من لنا ولاية عليه أوّلاً، فإذا لم يستجيبوا وجب علينا إلزامهم، قال ﷺ: «إن الله تعالى سائل كل راعٍ عمّا استرعاه: أحَفِظَ ذلك أم ضيَّعه؟

حتى يسأل الرجل عن أهل بيته».

[رواه النسائي وابن حبان. صحيح الجامع (١٧٧٤)]

فاعلم -علّمني الله وإيّاك- أنّك محاسب عن كلّ ما يقع في بيتك من منكرات إن سكتّ عنها ولم تغيّرها، وعليك بعد ذلك أن تدعو وتنصح أقرباءك -الأقرب فالأقرب-، وكذلك جيرانك ومن وراءهم، واحتسب أجرك عند الله، واصبر على ما قد يصيبك من أذى، وتذكّر قول الله سبحانه وتعالى: ﴿والعصر. إن الإنسان لفي خسر. إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾.

هذه هي الطريقة التي نستطيع بها أن نزيل الهوان والذل عن أنفسنا وعن أمتنا، والابتداع عن اعتقادنا وعبادتنا، وسنكون حينئذ مستحقّين لنصر الله لنا بفضله وكرمه، ثمّ برجوعنا إلى ديننا ونصرنا له، وبعدها نستطيع أن نُعِدّ من القوّة القتاليّة ما استطعنا، ونتوكّل على الله وحده، ونعمل لتكون كلمة الله هي العليا، لا القوميّة، ولا التّراب، ولا الهوية، ولا الحزب.

لقد قلت: إنّنا يجب علينا أن نعرف مرضنا الحقيقي لنعالجه العلاج المناسب، أما الهيئات والجماعات والفرق والأحزاب التي ظنت أن سبب ضعف الأمّة وخذلانها هو

تخلفها التّقني، فبدأت تنشغل وتشغل الناس بالأعمال العسكريّة المشروعة وغير المشروعة، ونسيت وغفلت أو على الأقل تهاونت في الجانب المهم وهو العمل على إصلاح اعتقاد الناس وعبادتهم، فهي مخطئة كل الخطأ، فنحن اليوم بحاجة إلى دعاة على منهاج النّبوّة أكثر من حاجتنا إلى مهندسين وأطبّاء ومخترعين.

ونتيجة الخطأ أننا اليوم نرى كثيرًا من بلاد المسلمين فيها من الاستعداد الصّناعي والعسكري والتّقني ومظاهر المدنيّة الحديثة، وحملة شهادة الدكتوراه ما لا يقلّ عمّا في بعض الدول الصناعيّة، ولكن هذه البلاد والشعوب المسلمة ما زالت تجعل أكبر همّها تقليد بلاد وشعوب الغرب والشرق في مختلف مناهج ومظاهر الحياة اليومية، حتى بلغ التقليد استيراد الفكر الشيوعي والعلماني والوثني.

وهنا قد يرد سؤال، وهو: أنه ما دام الأمر بيد الله سبحانه وتعالى، كما قال عز وجل: ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾.

ما دام الأمر كذلك فلماذا ينصر الله دولاً وشعوبًا غير مسلمة، ويغنيها بالمال، ويمكّن لها في الأرض مع ما فيها من

شرك وفجور وبدع وإلحاد؟

والإجابة على هذا السؤال من عدة وجوه:

أولاً: أن لله الملك والأمر سبحانه، ونحن عبيده، والفقراء إليه، وهو: ﴿لا يُسْأَلُ عمّا يفعل وهو يسألون﴾.

ثانيًا: أن الله سبحانه وتعالى نزّه نفسه عن الظلم، فقال تعالى: ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئًا ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾.

وفي الحديث القدسي مما رواه النبي ﷺ عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي إنّي حرّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرّمًا، فلا تظالموا...». [صحيح مسلم برقم ٢٥٧٧]

فلا بد أن لله حكمةً وراء تمكين الكفار حينًا من الزّمان، وقد يُبيّن اللهُ لنا هذه الحكمة، وقد لا يبيُّنها؛ فلا يجوز لنا البحث عنها، قال الله تعالى: ﴿ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً﴾.

ثالثًا: أن الله سبحانه وتعالى أطلعنا على بعض الحِكَمِ من تمكين العاصين والكافرين أحيانًا:

قال تعالى: ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾، وقال تعالى جوابًا لقول الصحابة يوم أحد ﴿أنّى هذا﴾: ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾.

وقال تعالى: ﴿لا يغرنّك تقلّب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾.

قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية:

(يقول تعالى: ﴿لا يَغُرَنَّكَ﴾ ظاهر ما عليه الكفار من الترف والنعمة والسرور، إنما هو استدراج، فعمّا قليل يزول هذا كلُه عنهم، ويصبحون مرتهنين بأعمالهم السيئة، لأن ما هم فيه ﴿متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾.

ومثل هذا قوله ﷺ: «إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج ثم تلا: ﴿فلمّا نسوا ما ذكّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾.

وقال ﷺ: «إن الله تعالى ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته». [صحيح الجامع ١٨٧٢]

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ولا تحسبنّ الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾.

ومن الأسباب التي تجعل للكفار التمكين الظّاهر أحيانًا في الدنيا أنهم يُعطُون بحسناتهم التي يعملونها في الدنيا حتى إذا جاءوا يوم الحساب فلا حسنات لهم، والدليل على ذلك

قول النبي ﷺ: «إن الله تعالى لا يظلم المؤمن حسنة يُعْطَى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيُطْعَم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن حسنة يجزى بها». [صحيح مسلم، برقم ٢٨٠٨]

ومن الحكمة في جعل الغلبة للكفار أحيانًا ابتلاء المؤمنين والتكفير عن خطاياهم؛ قال الله تعالى: ﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم﴾.

ومن المؤسف حقًّا أن نجد كثيرًا من الناس الذين قضوا أغلب حياتهم في أجواء الهزيمة وفتحوا أعينهم على الدنيا وأَمَم الغرب والشرق تداعى عليهم كما قال النّبيّ ﷺ:

«يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»، قيل: يا رسول الله فمن قلة يومئذ؟ قال: «لا، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، يجعل الوهن في قلوبكم، وينزع الرعب من قلوب عدوكم، لحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت». [رواه أحمد وأبو داود، صحيح الجامع ٨١٨٣]

أقول: من المؤسف أن نجد هؤلاء يعيشون بأفكار متشائمة يائسة من النصر، لأنهم يتخيلون أن النصر للقوة المادية فقط،

ولم يتذكّروا أن النصر من عند الله، هذه عاقبة جهـل الإنسـان بدينه، فليعلموا أنّ النصر من عند الله، وليعملـوا لإرضـاء الله سبحانه وتعالى بالعودة إلى دينهم كما فصّلنا سابقًا.

لا بدّ أن نعرف السبب الحقيقي للهزيمة لنجتنبه، ونعـرف السبب الحقيقي للنصر فنعمل به، بدلاً من التخبّط في طلـب النصـر دون تـأهيل أنفسـنا لـه بـالرجوع إلى الله وتصحيـح اعتقادنا وعباداتنا ومعاملاتنا وفق شرعه.

كيف نفهم ديننا فهمًا صحيحًا؟

لكي نرجع إلى ديننا؛ فإننا يجب أن نفهمه فهمًا صحيحًا، ولكي نفهمه فهمًا صحيحًا يجب علينا:

١- أن نعرف أول ركن من أركان الإسلام الذي به يعدّ الإنسان مسلمًا وبدونه لا يعدّ مسلمًا، وإن عمل كلّ ما يعمله المسلمون من عبادات. هذا الركن هو:

«شهادة أن لا إلا الله، وأن محمّدًا رسول الله».

هذا الركن العظيم من أركان الإسلام لا يعرف معناه كثير من المسلمين، ولا يعملون بمقتضياته، فإذا سألت اليوم بعضهم ما معنى: (لا إله إلا الله)؟ قالوا لك: معناها أن الله عظيم كريم، وهو خالق كل شيء، وهو الرزاق المدبر والمالك لكل شيء، وبيده مقاليد السموات والأرض.

هذا ما يفهمه أكثر الناس من معنى لا إله إلا الله، والحقيقة أن هذا جزء يسير من معناها عرفه وأقرّ به الكافرون، فلم يُغْن عنهم من الله شيئًا.

أما الجزء الأهم فقد نسيه أكثر الناس، وهو: أن أهم معاني (لا إله إلا الله): إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة دون غيره، فلا معبود بحق إلا الله، فلا يجوز للمسلم أن

يذبح إلاَّ لله، ولا أن يدعو إلاَّ الله، أما الذين يعظمون الله تعالى ويعبدونه ويتقربون إليه وفي نفس الوقت يصرفون أنواعًا أخرى من العبادات لغير الله كالذبح أو النذر، أو طلب المدد، أو الطواف، أو الاستغاثة بغير الحي الحاضر، أو الدعاء أو غير ذلك من العبادات؛ فهؤلاء مشركون خارجون عن ملة الإسلام؛ لأن الإقرار بعظمة الله وعبادته ودعائه مع غيره هو عمل لا يجعل الإنسان مسلمًا موحّدًا، بل يجعله مشركًا مستحقًا للخلود في النار -إذا أقيمت عليه الحجّة ولم يتب-.

والدليل: أن الله كفّر مشركي قريش وهم يعظمون الله تعالى ويتقربون له بأنواع العبادات، لكنهم كانوا يصرفون شيئًا من العبادات لأوليائهم ومقاماتهم، والدليل قول الله تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن ارادني الله بضرّ هل هن كاشفات ضره﴾، وقوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾، وقوله تعالى: ﴿قل من يرزقكم من السموات والأرض أمّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبّر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون﴾.

٢- وماذا عن الصلاة والصيام والزكاة والحج؟

الصلاة والصيام والزكاة والحج بقية أركان الإسلام، ومن أهم الفرائض والواجبات، ولكنها تأتي بعد الشهادتين، فالتوحيد أوّلاً، ولا يصحّ أي عمل ولا يقبله الله تعالى إلا من مسلم موحّد متّبع لسنّة محمد ﷺ، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونَنّ من الخاسرين. بل الله فاعبد وكن من الشاكرين﴾، وقال تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾.

فالتوحيد هو الفرق بين المسلمين حقًّا وصدقًا، وبين غيرهم في هذا العالم الذي تخيّم عليه ظلمات الشرك، وبالتوحيد ينجي الله الإنسان من الخلود في النار، كما قال تعالى: ﴿إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثمًا عظيمًا﴾.

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: «من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئًا دخل النار». [حديث رقم ٩٣].

وأمثال هذا كثير جدًّا في القرآن والسنة.

التوحيد هو الفارق بين الحق والضّلال

عندما كان نبيّنا ﷺ يقول لمشركي قريش في مكة: «قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا» رفض المشركون أن يقولوا: (لا إله إلا الله)؛ لأنهم فهموا من معناها: أنهم يجب أن يهجروا عبادة أي أحد إلاَّ الله تعالى، ويجب أن يتوقفوا عن تعظيم مشاهدهم ومزاراتهم والذبح لها ودعائها، والاستغاثة بها؛ وقد رفض رسول الله ﷺ رفضًا قاطعًا أيّ مساومة في مسألة التوحيد؛ لأن ما أرسله الله به وأرسل به كلّ الرسل قبله هو: إفراده بالعبادة سبحانه، أما تعظيم الله وعبادته مع عبادة غيره، فهذا شيء كان موجودًا بين أكثر الكفار منذ قوم نوح وسيبقى إلى قيام الساعة.

والآن هل فهمت يا أخي المسلم لماذا نحن أمّة متخلّفة، وأننا لسنا أهلاً لنصر الله؟

ذلك لأننا لم نتعلم ونفهم ديننا فهمًا صحيحًا، وبالتالي لم نعمل به عملاً صحيحًا، وتفرّقت بنا السُّبل عن طريق الوحي.

ولتعرف أخي المسلم مدى بعدنا عن ديننا: أنظر كم في بلاد المسلمين من صور الشرك الأكبر المخرج من ملّة الإسلام، وإليك بعض هذه الصور:

أهم صور الشرك عند المسلمين

أولاً: التعبد لغير الله تعالى بصرف شيء من أنواع العبادة لغيره سبحانه، وأكثرها انتشارًا: دعاء غير الله تعالى من الأموات -بحجّة أنهم من الأولياء-، أو الأضرحة أو المقامات أو المزارات أو المشاهد، والتماس المدد منها، أو اعتقاد أنها تنفع أو تضر.

وهذا شرك أكبر مخرج عن ملة الإسلام حتى لو كان صاحبه يعظم الله تعالى ويعبده ويدعوه في نفس الوقت الذي يدعو أو يسأل هؤلاء؛ لأنه يكون قد أشرك مع الله تبارك وتعالى غيره في العبادة بحجّة طلب القربة والشفاعة.

ومشركوا قريش في مكة كانوا يعظمون الله تعالى، ويعبدونه ويستغفرونه، ويخلصون له الدين في الشدة، ويعمرون البيت الحرام، ويسقون الحجاج، فلم ينفعهم ذلك؛ لأنهم كانوا يشركون معه غيره في الرخاء.

قال الله تعالى: ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾، وقال تعالى: ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة البيت الحرام كمن آمن بالله﴾، وقال الله تعالى: ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾.

قال تعالى: ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له وبذلك أمرت﴾.

وقال ﷺ: «لعن الله من ذبح لغير الله».

[صحيح مسلم برقم ١٩٧٨م]

فمن ذبح لغير الله تعالى؛ فقد أشرك، سواء ذبح لولي، أو لقبر، أو لنبي، أو لجنّي، أو لغيرهم، فقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ في الآية أن يخبر الناس أن صلاته ونسكه -وهو الذبح- ومحياه ومماته لله رب العالمين لا شريك له، فمن نذر أو ذبح لغير الله؛ فقد أشرك بالله، كما لو صلّى لغير الله؛ لأن الله تبارك وتعالى قرن الصلاة والذبح، وأخبر أنهما لله وحده لا شريك له.

ومن المنتمين للإسلام من يذبح للجن إذا اشترى سيارة، أو بنى بيتًا، أو أصابته مصيبة خوفًا من أذى الجن، فيتقرب لهم ويرضيهم بها، وهذه من ذبائح الجاهلية التي لا تجوز وهي شرك بالله.

رابعًا: ومن صُوَر الشرك الأكبر التي ظهرت وانتشرت بين كثير من الناس في العصر الحديث قبول القوانين البشرية في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله، أو قبول التحاكم إلى المحاكم والقوانين المخالفة للشريعة رضًا واختيارًا مستحلاً

لذلك، أو معتقدًا بجوازه، ويدخل في هذا من اعتقد أن هناك هديًا خير من هدي نبينا محمد ﷺ، أو حكمًا خير من حكمه الموحى به من الله.

ولما سمع عديّ بن حاتم رضي الله عنه رسول الله ﷺ يتلو قول الله تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله﴾ قال عدي: إنهم لم يكونوا يعبدونهم، قال ﷺ: «أجل، ولكن يحلون لهم ما حرم الله فيستحلونه، ويحرمون عليهم ما أحل الله فيحرمونه، فتلك عبادتهم لهم».

[سنن الترمذي - تخريج الألباني برقم ٣٠٩٥]

خامسًا: ومن مظاهر الشرك والكفر التي استهان بها الناس: السحر، قال الله تعالى: ﴿وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر﴾.

وكسب الساحر حرام، وحكم الساحر القتل، ويشارك الساحر في الإثم من يبتغي السّحر عنده.

ولا يجوز اللجوء للسحرة لفك السحر؛ بل الواجب اللجوء إلى الله وحده ليشفي المسحور.

والاستشفاء من السحر يكون بكلام الله مثل المعوذات وغيرها، وبالأدعية الثابتة.

سادسًا: الكهان والعرّافون الذين يدّعون معرفة الغيب

كفار؛ لأنه لا يعلم الغيب إلاَّ الله تبارك وتعالى.

قـال تعـالى: ﴿قـل لا يعلـم مـن في السـموات والأرض الغيب إلا الله﴾، وقال النبي ﷺ: «من أتى كاهنًـا أو عرّافًـا، فصدّقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل على محمد».

[صحيح الجامع برقم ٥٩٣٩]

هذا حكم من أتى عرّافًا أو كاهنًا فصدّقه، أما مـن يذهـب إلى الكاهن أو العرّاف من باب التجربة دون أن يصدّقهم؛ فلا تقبل له صلاة أربعين ليلـة، أي أنـه إذا صلاّهـا سـقطت عنـه الفريضة بأدائها، ولكنه لا يؤجر عليها لقـول النّـبيّ ﷺ: «مـن أتى عرّافًا فسأله عن شيء؛ لم تقبل له صلاة أربعين ليلة».

سابعًا: ومن أخطـر صـور الشـرك المنتشـرة بـين المسـلمين اليوم: شـرك الغلـو في محبـة الأنبيـاء أو الصـالحين، كمـا غـلا الهندوس في براهمـا، والبوذيـون في بـوذا، واليهـود في عزيـر، والنصارى في عيسى؛ فقال بعض المسلمين بأن محمدًا خلق من نور الله، وأنّ من جوده الدنيا والآخرة، وأنّ مـن علومـه علـم اللوح والقلم، ودعوه مع الله، فقالوا: يا الله! يا محمد! وسمّـوا بعض أولادهم عبد النبي، وقالوا مثل ذلك عمّن دونه.

قال الله: ﴿ومـن النـاس مـن يتخـذ مـن دون الله أنـدادًا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبًّا لله﴾.

فمن أحبّ إنسانًا أو حزبًا أو نظامًا أو غيره حتى صار يقدّم طاعته وحبّه على حبّه لله تعالى وطاعته، ويقدّم أمره ونهيه على أمر الله ونهيه، وقع في هذا النوع من الشرك الأكبر.

ثامنًا: تميّز بعض المنتمين إلى الإسلام بسبّ الربّ وسبّ الدّين ممّا لم يتّهموا به أعداءهم من غير المسلمين.

وهذا كلّه من الكبائر التي لا يغفرها الله لمن لم يتب عنها قبل الموت، وإن غفر الزّنى والرّبا وشرب الخمر لمن يشاء.

وللشرك الأكبر صور أخرى، ولكننا ذكرنا أهمها وأكثرها انتشارًا.

هذا ما رأيت التّقرّب إلى الله ببيانه استجابةً لقول النّبيّ ﷺ: «الدّين النصيحة» قالها ثلاثًا، قالوا: لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامّتهم».

[صحيح مسلم برقم ٥٥]

ألا هل بلّغت... اللهم فاشهد.

وصلى الله وسلم على عبده ورسوله سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومتّبعي سنّته أجمعين.

فهرس المحتويات